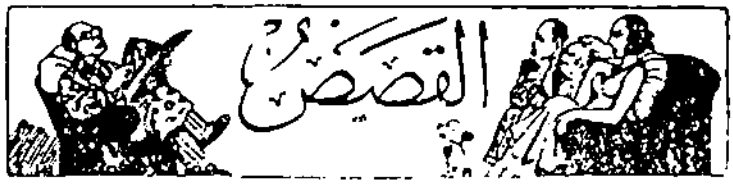

لحن الوداع ...

للأستاذ عبد القادر حميدة

كانت الساعة الرابعة مساء ... حين نزل موزع البريد عن دراجته ... أمام ذلك المبنى الهائل القابع بميدان سليمان باشا ... ودلف من باب العمارة الضخم ... ثم ألقى نفسه بالطابق الثالث يضغط على جرس الشقة رقم ٤ ...

وناول الخادم رسالة رجا منه أن يؤديها لسيده ..

وفضها الدكتور وطفق يلتهم سطورها فى لهفة ...

وفجأة تقلصت عضلات وجهه ... وشحب لونه ... واتسعت حدقتا عينيه ... وزاغتا بين العبارات فى ذهول وشرود ... ثم فركهما ... وأنعم النظر ثانية فى الرسالة غير مصدق ما تطالعه به حروفها ...

وتناول معطفه ... وغادر العيادة .. وفى كيانه ثورة جامحة تنتفض وتهزه هزا عنيفـا ... وتندلع من عينيه ألسنة من لهب صارم جبار .. وهو يردد فى إصرار وتحد بين آونة وأخرى ...

يا إلهى ... أيمكن أن يحدث كل هذا ؟!

وهناك فى منزله ... ألقى على زوجه نظرة قاسية عنيفة ...

جلجل » فهو مخطئ. انتهى »

وجاء فى المصباح المنير » : « ولا تستعمل إلا مع الجحد ، ونص عليه أبو جعفر أحمد بن محمد النحوى فى شرح المعلقات ولفظه : ولا يجوز أن تقول جاءنى القوم سيما زيد حتى تأتى بلا لأنه كالاستثناء . وقال ابن يعيش أيضا : ولا يستثنى بسيما إلا ومعها جحد . وفى البارع مثل ذلك ... الخ »

أحمد مختار عمر

إلى أستاذنا الزيات :

كنت ولا أزال من المعجبين بأسلوبك الرائع الأخاذ ، ذلك الأسلوب الساحر ذو الجرس الفاتن البليغ ، الذى يملك على قرائك زمام تفكيرهم فينقلهم إلى عوالم الحق والخير والجمال. ولا أحابيك أو أداجيك إذا ما قلت إنك أثير لدى — على رغم إيجازك — أكثر من أندادك الكتاب الذين لا يستطيعون التعبير عن أفكارهم إلا بالأطناب والتطويل .. وهو مالا يرضاه البليغ الواقف على أسرار العربية . وقد زاد هذا الإعجاب حتى بلغ الذروة يوم أشرقت علينا « رسالتك » الحبيبة ، وهى تحمل لدنيا الناطقين بالضاد افتتاحيتك الجبارة الموسومة بـ « ثوروا على الفقر قبل أن يثور » ! لقد كانت — والله شاهد على ما أقول — درة الأمة فى جيد الرسالة — قرأتها مرات وفى كل مرة كانت تسمو فى عينى وفكرى حتى ارتفعت إلى قمة لم تبلغها مقالة كاتب من قبل

وقد تعجب وتقول : وما مرد هذا كله لدى شاعر يعيش فى أفق الوهم ؟! أما أنا فاسمح لى أن أهمس فى أذنك بكلمة واحدة: هى أنك الآن استطعت أن تعبر عن شعور ملايين من الشعوب العربية المبتلاة بأرباب المناصب والألقاب ، الذين ما وصلوا إلى كراسيهم تلك التى ذكرتها إلا بجهود الأيدى العاملة وغفلة عقولهم

فما ذكرته عن مصر هو هو بعينه فى العراق . فهل لك أن توجه إلى وزرائنا الذين لا يزالون يعيشون فى أبراج عاجية ، مقالا كمقالك « ثوروا على الفقر قبل أن يثور » ؟!

صدقنى ياسيدى أنك بعملك ذلك ترضى هذه الملايين التى تعيش على ضفاف الرافدين ، إرضاء يجعل من اسمك عندهم أغرودة عذبة الرنين ! فهل آمل على يديك خيراً لهذا الشعب المسكين الذى يتنعم برفاه الجهل ، وظلال الفقر ، وعز المرض .. بهمة وزراء المعارف والشؤون الاجتماعية والاقتصاد ؟ !

وعليك ياسيدى منا السلام . ولك الشكر والإعجاب

بغداد — عبد القادر رشيد الناصرى

تصويب :

وردت شطرة على غير وجهها فى أحد أبيات قصيدة (صحراء العجائب) المنشورة فى العدد الماضى لالتباس التصحيح وصوابه كالآتى : —

به سحنة الواشى ، لها سبع أعين   لها سبع آذان ، وسبع حقائب !

تركت فيها مشاعره الثائرة ... قائلا بصوت أجش فيه صرامة واعتداد ...

الليلة سأغادر القاهرة ... لمسائل خاصة بعملي .. وسأعود بعد أربعة أيام ...

وحاول أن يغوص في أعماقها ... ليستكشف ما أحدثه وقع الخبر على سمعها ... لكن صوتا رقيقا كأنه النغم العذب همست به شفتاها انساب إلى أذنيه في هدوء حالم ..

— وهل أقضيك يا حبيبي أن القدر سيختلس أربعة أيام من حياتنا السعيدة ، ويحرمنا سماع ذلك اللحن الخالد عندما تتهامس شفاهنا .. وتلك الأنغام العذبة عندما يبسم ثغرك .. ويخفق صدرك ... وأنا ملتصقة بك .. ألوذ بأحضانك ..؟

الله معك .. وطيفك معي ... سأتخذ منه رفيقا يهدهد صدري ... ويرفرف على جناحيه ... حتى تعود ...

وانبرى يريد أن يقول شيئا ... لكن الكلمات ماتت على شفتيه ... ولم يدر كيف اغتصب تلك الابتسامة المصطنعة — وهي تعد أنامله البضة لتجفف دموعها التي انسابت غزيرة على خديها — وقال في خبث ودهاء : هو كذلك يا حبيبتي ... ولكن ما حيلتنا ؟

والآن ... أود أن تسمعيني لحن الوداع الذي وضعناه معا في لحظة ما ... على ألا تنتهي منه حتى أكون قد بعدت عن البيت عاما .. لعل أجد في سماعه ما يهون ضخامة الفجوة التي ستباعد بيني وبينك طيلة الأيام الأربعة ...

وجلست إلى البيان تعزف عليه بأناملها الرهفة... فتصاعدت أنغام حزينة رائعة تفيض سحرا وحنانا وتتمثل في إيقاعها روعة الفرقة وألم البين

بيد أنه عندما تركها لم يكن قد خرج ولكنه دلف إلى حجرة مكتبه في انسياب الثعبان؛ وعندئذ أحكم رتاجها في حذر وران الصمت الرهيب على أرجاء البيت فبدا في سكون مدينة الأموات

كان النهار قد رقد بين أحضان الليل ..

والقمر قد صب شعاعه الهادئ الحنون على الكون ..

والخمائل قد استسلمت إلى مداعبة الأنسام الرطبة ...

كما كان حدي مستسلما إلى أفكاره الحائرة ...

إنه الآن يستطيع أن يفعل شيئا ...

إنه يستطيع على الأقل أن يقف على جلية الأمر ...

ونزع يده من جيبه وهي مطبقة على الرسالة .. وانسكب عليها ضوء القمر الحالم خلال النافذة فقرأها من عينيه وقرأها للمرة العاشرة ..

وخيل إليه أن أتونا مستعرا يصهر أعصابه حين نظر إلى ساعته وأدرك أنه لم يبق سوى ستين دقيقة يحسم بعدها موقفه من زوجه الخائنة كما تطالبه الرسالة بالوعد الذي سيلقاها فيه شريكها في الإثم ..

وخلال ذلك الصراع العنيف الجبار الذي اكتنفه وتنازعه طويلا وقع بصره دون قصد على إطار جميل يضم بين زواياه صورة زوجه ...

فانقض عليها ليحطمها ، لكنه خاف أن يحدث ضجة تفسد عليه خطته ، وتكون حائلا بينه وبين الحقيقة السافرة التي سوف تنبلج بعد قليل فتراجع . وأذهله الزمن عن حاضره لحظات اندفع به فيها إلى أركان الماضي البعيد والقريب ... ومن ثم تراءت له أحداث وقائع راحت تتدفق على ذهنه المكدود حتى انتهت به إلى سمير تلك الخيانة المخيفة ...

كان طالبا بالسنة النهائية بكلية الطب حين برزت في حياته « ميرفت » و « ميرفت » مثال خلاب من الفتنة الطاغية يتمثل في وجهها سحر الشرق العنيف ، وجمال الغرب الفتان ، ذات عينين عميقتين زرقاوين ، وشعر كأسلاك الذهب ، ينسدل في تعاوج على عنق من العاج ، تزينه بشرة كأنها المرمر ...

وكان صاحبنا قد قرأ فيما قرأ مقطوعة شعرية رائعة للشاعر ألفريد دي موسيه يصف فيها محبوبته ... فكمنت في أعماقه تلك الصورة الشعرية ، وتأثر بها أيما تأثر ، فبات يحلم بفتاة ، أي فتاة ، يرى فيها خياله وحلمه ..

ولم يتردد في حب ميرفت حين وجدها على الصورة البارعة التي خلقها في ذهنه الشاعر الفرنسي ، وكأنها هي الأخرى شعرت بما يحمله لها بين حنايا ضلوعه ، فكانت إذا قابلته عند ذهابه وإيابه من الكلية ـ تتضرج وجنتاها وتغض من بصرها ...

أما حيلته هو في هذا الحب فكان يستلقي على فراشه ليستعيد الدقائق التي مرت بهما في مقابلة عابرة ... ويجنح إلى الخيال المريض ، فيودع طيات حبه أمنيات كثيرة ، ويشيد عليه كثيرا

من أهداف مستقبله، وتمددت المقابلات ...

وارتفعت درجة حرارة هذا الطارئ الجديد ...

من نظرة مختلسة بادئ الأمر، إلى كلمات تتقمصها بعض الجرأة، إلى رسائل الغرام الملتهبة، حتى التقيا في خلوة هادئة بعيدة عن أنظار الفضوليين ...

في الحدائق، وعلى شاطئ النيل، وتبادلا أعذب ألفاظ الحب والهيام ...

ووسط تلك العاطفة الفياضة ... ارتبطا معا بوعد الزواج ...

وحصل حمدى على إجازته الجامعية ... واتقدمه البين كان من الطلبة الذين حازوا شرف إيفادهم إلى الخارج ...

لم يسر لتلك المنحة الجامعية التي تمده لمستقبل زاهر، بل ظن أن الدهر يريد أن يحرمه سعادته - وإذا كان القدر ينقل خطانا كيفما يعن له ... وما نحن إلا دمى ضئيلة تترنح تحت معوله - فلا ضير عليه أن يدخل بأنفه ليبدد الحلم الذي تحقق أو كاد. بيد أن الذي هدأ من روعه أن معبودته الفاتنة انتزعت من رأسه فكرة الإحجام عن السفر إلى الخارج ... وفتحت أمامه باب الأمل على مصراعيه. إن حمدى يذكر جيدا تلك الليلة، ليلة السفر، وإن شيئا هاما ليظل عالقا بذهنه حتى الموت ... إنه اللحن الخالد، لحن الوداع، الذي وضعاه معا وهما سابحان في رحلة حالمة بين أطباق نفسيهما العليا وأغوارها المتباعدة ...

وإنه ليذكر أيضا ... تلك الرسالات المعطرة التي كانت تبعث بها إليه في بلاد الغرب، تطمئنه أن قلبها لن يسع إنسانا غيره، وأنها قد أغمضت عينيها عن جميع شباب هذا الجيل ...

عاد حمدى إلى أرض الوطن، بلد الحبيب مزهوا بما ناله من علم، وما ينتظره من سعادة ...

وصارح والده برغبته في الزواج من ميرفت فوافق على الفور.

وشهدت القاهرة ليلة من ليالي العمر، تزوجا فيها، وبلغا أقصى أمانيهما ...

وانقضت سنة أنجبا فيها طفلا ...

وجاء اليوم المشؤوم الذي جاءته فيه الرسالة ...

إن موزع البريد لم يخطئ حين أعطاه إياها برغم أنها مكتوبة بعنوان زوجه. كل الذي يدركه أن القدر أراد أن يمنحه الفرصة السانحة لينتقم لشرفه المثلوم الذي كان يقدسه ويقدره ...

ترى ... إلى أي مدى وصلت علاقتها «بصلاح» هذا الذي ذيل الرسالة باسمه القذر، والذي سوف يمحى من قائمة الأحياء بعد قليل ؟

وما كنه هذه العلاقة ؟ وكم من الآدميين أدركوا أنه زوج غافل مخدوع ؟ وأيقظه من غفوة أفكاره قرع خفيف على الباب الخارجي ... فيه خوف واضطراب ...

فانفجر بين خواطره بركان هائج ثائر يقذف بالحمم. وأدرك لتوه أن الساعة قد اقتربت، وأن الموعد المضروب قد أتى به ركب الزمن ...

وزاد من يقينه وقع خطوات مرتجفة اندست إلى مخدع الزوجية المدنس ...

وابتدأ حبل الشيطان يلتف حول جسده ...

واستولت عليه قوة مفاجئة جعلته يخطو إلى الردهة في تباطؤ وحذر ...

لكن بريقا حادا التمع أمام ناظره، فحول بصره ليستقر على مسدس رابض فوق مكتبه ... فجذبه في نشوة، واندفع كالسهم، ووقف عند باب الحجرة يسترق السمع ...

وانبعثت من جوف الحجرة قبلة صاخبة صفعته في قوة، فركل الباب بحذائه ... وقبل أن يلجه انطلقت أربع رصاصات من فوهة مسدسه أصابت المرمى ...

فهدأت ثورته، وداخلته راحة نفسية، ولذة غريبة ...

وتلفت حوله بعد أن رأى زوجه تنتفض في لجة من الدماء، فشاهد مخلوقا ممددا على السرير يبتسم في بلاهة تبين فيه طفله الصغير ...

شيء واحد أطار صوابه وجعله يهذي كالمحموم، هو ... أنه بعد وقوع الحادث بقليل سمع وقع أقدام تهبط على الدرج من الطابق العلوي للمنزل يقطعه صوت رقيق ...

— آه ... تذكرت يا صلاح! لعل السيدة التي تقطن الشقة التي تحت شقتنا قد تسلمت الرسالة ... كما حدث في الرسالة السابقة لتشابه اسمينا !!

عبد القادر حميدة